النقدُ العربيُ القديمُ
بين سلطةِ التراثِ ومنجزِ الحداثة

أ.د. محمود عبد الله الجادر
كلية الآداب – جامعة بغداد

لم يعن النقدُ العربي القديم بمرحلة شعرية اسبق من مرحلة المهلهل وامرئ القيس فابن سلام الذي بدا معنياً بمسالة التأصيل لم يخرج إلا بقوله "ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف"(١) ، أما الجاحظ فقد بدا اشد ميلا الى التحديد حين قال : " وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن ، اول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له الى ان جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"(٢) .

ويخيل الي ان أحاديث العلماء عن اولية الشعر كانت رهينة بهذا الشعر الذي نقل اليهم مروياً بلغة القران الكريم حتى لو تخيلنا – افتراضا – ان الرواة نقلوا اليهم أشعارا قبلت باللغة – او اللغات – التي كان يتكلمها العرب وينظمون بها أشعارهم قبل تبلور العربية القرآنية ، فالعلماء ما كانوا ليعنوا بالشعر لولا عنايتهم بخدمة لغة القران الكريم التي تقرر بعض المرويات ان تاريخ نضجها وتبلور صيغتها الأدبية لا يبتعد كثيرا جدا عن تاريخ بزوغ نور الإسلام(٣).

ونحن اذ نطمئن الى ان أولية الشعر العربي (بالدلالة القومية) اقدم بكثير من زمن المهلهل وامرئ القيس فأننا لا نستطيع آن نرتفع باولية الشعر العربي

علينا ان نقدم دليلا قاطعا على لغة القران الكريم هي اللغة نفسها التي كان العرب يتكلمونها قبل هذا التاريخ وانها اللغة الحية الوحيدة التي شذت عن الخضوع لقوانين التطور اللغوي وآيا كانت طبيعة العوامل التاريخية فان اقدم نصوص النقد العربي التي وصلت إلينا انبثقت في دائرة هذا النص الشعري الجاهلي الذي تأسس نموذجه المتكامل على يد المهلهل وامرئ القيس ، وان النص النقدي المروي ثم المدون ظل زمنا طويلا خاضعا لسلطة نص التأسيس الشعري مستمدا معاييره من ملامح شكله ومضمونه ، بل اننا نواجه اعتراف أحد الرواد - وهو امرئ القيس - معلنا صراحة وقوع نصه الشعري تحت سلطة نص اسبق حين يقول

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام(٤)

ويبدو ان ضبابية معلومات العلماء حول نص ما قبل المهلهل وامرئ القيس واقتصار اطلاعهم على نصوص التأسيس التي فرضت مواصفاتها الأساسية على نتائج شعراء العصر الجاهلي وألقت بظلالها على نتاج شعراء ما بعد الإسلام جعلتهم يعتمدون شعر الرواد (معيارا) يؤولون اليه ويفرضون سلطته في اكثر أحكامهم النقدية المروية والمدونة التي ورثناها من القرن الثاني الهجري .

ولقد شكلت سلطته نص امرئ القيس حجر الزاوية في معايير النقاد العرب، ويفسر ابن سلام علة تقديم النقاد امرأ القيس بإشارته الى انه " ما قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق العرب الى أشياء ابتدعها ، واتبعته فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتبكاء في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المآخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وقيد الأوابد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى"(٥) .

ولا يخلوا السبق الزماني - في حدود الأولية التاريخية للشعر العربي - من اثر في منح نص امرئ القيس سلطته التراثية داخل العصر الجاهلي ، وذلك ما جعل الأمر يؤول إلى قناعة غير معلنة بتقدم السابق على اللاحق فنيا وذلك ما

قيمة الرواية في نضج الشاعرية والتقدم الفني . فافضل الشعراء هو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره[٦] بل ان الأصمعي ليقرر انه " لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الألفاظ"[٧] .

إن التركيز على قيمة الرواية قد يبدو معززاً غير مباشر للقناعة بسلطة النص الأسبق في بلورة شاعرية اللاحق ، وذلك ما يستفاد من مثل قول الآمدي "إن زهيراً أتاه التجويد في الشعر من قبل بشامة[٨] وكان زهير راوية خاله بشامة بن الغدير ، بل إن العلماء عدوا هامش استقلالية الشاعر الراوية وخروجه عن سنن من يروي عنه (شذوذا) فهذا الأصمعي يقول : "كان أبو ذؤيب راوية ساعدة، وشذ عليه في أشياء كثيرة"[٩] .

لقد ارتضى الشعراء الجاهليون المتأخرون أنفسهم أن يستسلموا لسلطة نصوص الرواد فلم يخرجوا عن التقاليد التي أرساها أمرؤ القيس (وأتبعته عليها الشعراء) ، واعترف عدد من الشعراء بسلطة نصوص السابقين ، فعنترة بن شداد لم يجد (متردماً) جديداً يقف عليه غادره الشعراء لينفرد هو بالوقوف عليه .

هل غادر الشعراء من متردّمِ أم هل عرفت الدار بعد توهُّمِ[١٠]

ويفخر كعب بن زهير بأن قصائده (شبيهات) بقصائد أبيه زهير .

أقولُ شبيهاتٍ بما قال عالماً بهنّ ومن يشبه أباه فما ظلم[١١]

ويمتد الأمر إلى شعراء أمويين يعترفون بنسجهم على منوال القدماء ، بل إن الفرزدق ليفخر بأنه (ورث) إبداعه من جملة شعراء جاهليين ومخضرمين يعد منهم ثمانية عشر شاعراً في أبياته التي يتصدرها قوله :

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرولُ[١٢]

لقد تبلورت القناعة بسلطة النص القديم داخل العصر الجاهلي وفي صدر

فمعاوية بن أبي سفيان يفضل الطفيل الغنوي على زهير بن أبي سلمى ويعلل تفضيله بقوله :

"دعوا لي طفيلاً فإن شعره أشبه بشعر الأولين من زهير"(١٣) .

وقد تكون هذه القناعة الراسخة بسلطة النص القديم والممتدة على مدى العصر الجاهلي ثم الإسلامي ثم الأموي عاملاً من عوامل الثبات النسبي للنمط الشعري الذي لم تمسسه تعاليم الدين الإسلامي الحنيف التي ركزت من الشعر على بنيته الموضوعية التي وجهتها توجيهاً عقيدياً ثم تركت للشاعر قسطه الفني ، بل إن رجال الإسلام الأوائل طالما أعربوا عن إعجابهم الشديد بنتاج شعراء جاهليين (وثنيين) وطالما أرفضوا من الشعراء الإسلاميين أن يجروا على سنن أولئك الجاهليين فنياً وهم يضعون شعرهم في خدمة العقيدة الإسلامية أو يقولون في شؤونهم من دون أن يمسوا تعاليم العقيدة ولا يخلو من دلالة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمنح شاعراً ما منحه كعب بن زهير (بردته الشريفة) حين أنشده اعتذاريته اللامية مع أن افتتاحها مقطع نسيب وغزل يفضي إلى رحلة على ناقة أطنب في وصفها تفضي إلى الأعتذار والمديح ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يدرك بعمق أن لا سبيل لكعب ولا لغيره إلى أن (يبتكر) نمطاً فنياً (إسلامياً) يبتعد به عن النمط الجاهلي ، فحسبه إذن أن يكتفي بمتابعة النمط الفني الموروث بعد أن يوجه موضوعه توجيهاً إسلامياً حتى لو بدا مقطع اعتذاره ومديحه أشبه بالاعتذار والمديح الجاهليين .

وهكذا يفسح الإسلام – باكتفائه بالتوجيه الموضوعي وحدة – الطريق لسلطة البنية الفنية الشعرية الجاهلية أن تفرض امتداداها وهيمنتها على النص الشعري الذي بدا لاهثاً وراء النتاج التراثي حتى بدا أن أقصى ما يطمح إليه الشاعر على مدى عصر صدر الإسلام والعصر الأموي أن يبلغ مبلغ الشاعر الجاهلي في إبداعه الفني ، لاسيما أن الملاحظات النقدية التي كانت تتردد في

والبيئات الشعرية المتباينة، الشام والعراق والحجاز ، ما كانت تتجاوز البنية الموضوعية ، بل إن بعضها كما رأينا كانت تكشف عن أن الاستحسان كان ينطلق من النظر إلى مدى مجاراة النص المحدث لمواصفات النص التراثي الفنية .

ويشهد القرن الثاني الهجري تأسيس مدرستي البصرة والكوفة اللغويتين اللتين آل علماء كل منهما إلى النص التراثي يستمدون منه الشاهد اللغوي في أطار جهدهم لخدمة لغة القرآن الكريم ، فكان أن حرصوا على تطلب هذا النص من أفواه الرواة حتى طالت مدارستهم له وألفتهم إياه ثم تحولت الألفة إلى إعجاب والإعجاب إلى ضرب من التعصب لاسيما حين نظر هؤلاء العلماء في الشعر الإسلامي والأموي فوجدوه خاضعاً لسلطة النص الجاهلي خضوعاً كاد يحرمه من تقديم نموذج يستحق أن يوقف عنده طويلاً حتى إن الأصمعي ينقل أن أبا عمرو بن العلاء حيث سئل عن الأخطل قال : "لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوماً واحداً ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً"(١٤) .

ويبدو أن الأصمعي نفسه جرى على سنن شيخه ، فحين سأله أبو حاتم السجستاني عن جرير والفرزدق والأخطل قال : "هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن ولا أقول فيهم شيئاً لأنهم إسلاميون"(١٥) .

لقد تسللت القناعة بسلطة النص التراثي من ساحة الشعر والملاحظات التأثرية إلى ساحة نقد اللغويين الذين اعرضوا عن قبول منجز الشعر المحدث، فإذا ما اضطروا إلى أن يقولوا لم يتجاوزوا حدود التقويم اللغوي ، فالأصمعي في أحكامه على الشعراء يكاد يحصر إطلاق لقب (فحل) أو (غير فحل) على الجاهليين والمخضرمين أما الإسلاميون والأمويون فإنه يكتفي بالحكم على الشاعر منهم بأنه (فصيح) أو (ثبت) أو (ثقة) أو بالحكم عليه بالضد من ذلك حتى يبدو أن شعر المحدثين عنده محض نص لغوي لا يرقى إلى مستوى نتاج الفحول بل نتاج غير الفحول في أقل تقدير(١٦) .

لقد وقع النقاد اللغويون تحت سلطة النص القديم ، أو قل بأنهم اختاروا الوقوع تحت تلك السلطة لأسباب قد تكون خلفيتها لغوية تطورت إلى قناعة فنية بقصيدة التأسيس التي أرست النهج الذي احتذى عليه اللاحقون وما كادوا يضيفون شيئاً يقنع أحداً بأنهم ابتكروا نمطاً يميزهم ويحرك النقاد اللغويين للقول فيه ، ولهذا أعرض العلماء عن تقويم نتاجهم مكتفين بتقويم الأصل الذي بدا الفرع صدى باهتاً له في نظرهم ، فابن الأعرابي يرى أن "أشعار هؤلاء المحدثين مثل الريحان يشم يوماً ويذوي فيرمى به ، وأشعاراً القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته أزداد طيباً"(١٧) .

وربما كان عنصر القدم الزماني وحده عامل الترجيح على الرغم من الأعراب عن القناعة بتناظر النمط ؛ فالأصمعي حين يوازن بين شعر نصيب وشعر عبد بني الحسحاس يقول : "هما في قرن واحد لأن نمطهما واحد ، ولكن ذلك متقادم في الزمان وهذا محدث"(١٨) .

ويبدو أن الشعراء المحدثين أدركوا حقيقة تقديس النقاد اللغويين لسلطة القديم وأعراضهم عن المحدث إعراضاً على الرغم من تبلور ملامح تجديد في نتاجهم فراحوا هم ينبهون النقاد على ضرورة الإنصاف في نظرهم إلى أشعارهم حتى قال ابن مناذر لأبي عبيدة حين أنشده مرثية عارض بها ابا زبيد الطائي "أحكم بين القصيدتين وأتق الله ولا تقل ذلك فتقادم في الزمان وهذا متأخر ولكن أنظر في الشعر وأحكم لأفصحهما وأجودهما"(١٩) .

ولقد وجد المحدث طريقة شيئاً فشيئاً إلى الساحة الأدبية وبدأ الناس خاصتهم وعامتهم يجدون فيه ما يرضي أذواقهم ، بل بدأوا يجدون فيه ما لا يجدونه في القديم أحياناً ، ولم يعد أواخر خلفاء بني أمية وأوائل خلفاء بني العباس يكتفون من الشعر بما يرويه لهم الرواة من أشعار القدماء وإنما بدأوا يستمعون إلى أشعار الإسلاميين والمحدثين ثم يستمعون إلى معاصريهم ويثيبونهم على ما

ما ينشده الشعراء في قصور دمشق ومجالس المدينة ومربد البصرة ثم قصور بغداد ومجالسها ، وربما وجد الناس هذا الشعر أشكل بزمانهم ، وأقدر على التعبير عن طبيعة حياتهم وبيئاتهم الجديدة ، حتى لم يعد بوسع النقاد اللغويين وتلامذتهم أن يبقوا معرضين عن المحدث الذي بدأ أن السكوت عن القول فيه أحياناً ضرب من الجهل لا التجاهل .

والحقيقة أن أشد اللغويين وقوعاً تحت سلطة القديم بدأوا يتزحزحون قليلاً أحياناً ليطلوا على هذا المحدث ولو من نافذة ضيقة ، فهذا أبو عمر وبن العلاء الذي طالما أعرض عن تقويم شعر المحدثين يعيش لحظة يبدو أن ذوقه الشخصي تغلب فيها على التزامه العلمي فيقول : "لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى همت بروايته"[٢٠] وهذا يونس بن حبيب لا يتورع عن أن يفضل قصيدة لمروان بن أبي حفصة على قصيدة للأعشى من دون أن يقيم وزناً للقدم والحداثة[٢١] . بل إن أبا عبيدة يعرب بصراحة عن أن شعر الحسين بن مطير من أعجب الشعر إليه[٢٢].

لقد شهد النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بدايات إطلال على المحدث مع أن سلطة التراث بقيت مهيمنة على الفكر النقدي بشكل مطلق ، ومع إطلالة القرن الثالث بدأت الظاهرة تتبلور شيئاً فشيئاً ، فابن سلاّم تلميذ الأصمعي ووريث المدرسة النقدية اللغوية يكاد يحقق انتقاله حاسمة حين يؤلف كتابه طبقات فحول الشعراء فيختار أربعين فحلاً جاهلياً ومخضرماً يوزعهم على عشر طبقات في كل طبقة أربعة فحول معتمداً معيار الكثرة والجودة في التقديم الطبقي ثم يختار أربعين فحلاً مخضرماً وإسلامياً وأموياً يوزعهم على عشر طبقات في كل طبقة أربعة فحول معتمداً المعيار نفسه ، وسواء كانت الطبقات كتاباً واحداً أم كتابين لابن سلام فإن الأمر لا يغير الحقيقة الجوهرية وهي أن ابن سلام كان من أوائل تلاميذ جيل اللغويين الذين فسحوا للمحدث موضعاً من جهدهم النقدي متحررين قليلاً من سلطة النص التراثي .

ولسنا ندري إن كان أبو عبيدة معمر بن المثنى سبق ابن سلام أم تبعه حين ألف كتابه المفقود (الشعر والشعراء)[٢٣] الذي ورد في نقول عنه - وربما عن كتاب آخر مفقود - أنه وصف عدداً من الشعراء الجاهلين والمخضرمين بأنهم من الطبقة الأولى أو الطبقة الثانية أو الطبقة الثالثة ووصف عدداً من المخضرمين والإسلاميين بأنهم من الطبقة الأولى ووصف عدداً من العباسيين بأنهم من الطبقة الأولى[٢٤] وسواء أكان أبو عبيدة سبق ابن سلام أم تأخر عنه فإن الذي يعنينا من الأمر أن عالماً آخر غير ابن سلام من تلاميذ جيل اللغويين تزحزح عن سلطة النص التراثي ليفسح للمحدث موضعاً من جهده النقدي بل يتجاوز ابن سلام إلى شعراء معاصرين أو قريبين من المعاصرين كالسيد الحميري والطرماح وبشار بن برد وأبي نواس[٢٥].

ويبدو أن إعراض ابن سلام عن معاصريه كان نتيجة حرصه على أن يفسح لشيوخه المجال أكثر مما يفسح لرأيه الشخصي ، فهو في طبقاته حريص على نقل مروياته عن أولئك الشيوخ أكثر من حرصه على أن يقول هو شيئاً ، ولأن شيوخه لم يقولوا شيئاً ذا بال في هؤلاء المحدثين فقد كان حسبه أن يكتفي من الشعراء بمن تبلورت في شعره أقوال الشيوخ[٢٦] أما أبو عبيدة فلم يكن حريصاً على ما حرص عليه ابن سلام ، فكان شأنه شأن الجاحظ الذي كانت له آراؤه الجريئة في الشعر المحدث والشعراء المحدثين وإن كنا لا نوافق على ما ذهب إليه بعض مؤرخي النقد العربي من أن الجاحظ أستطاع أن "يؤسس ديناً نقدياً جديداً ثار به على أصنام الأدب الجاهلي وحطم أصنام التقديس للماضي"[٢٧] فالجاحظ ظل يستمد معاييره النقدية من التراث الشعري الجاهلي والإسلامي ولكنه عاصر حركة شعرية اقتحمت على تلاميذ اللغويين حصانتهم ضدها وجعلت نقاداً مثل ابن سلام وأبي عبيدة يفتحون صفحة جهدهم للقول فيها فضلاً عن أن الجاحظ بدأ يطالع استقرار أسس فنية أختطها هذا المحدث لنفسه كان عليه أن يتأملها وأن يكون له فيها رأي ، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان حذراً في أكثر الأحيان حتى إنه لا

في قوله : "والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلي والسيد الحميري وأبو العتاهية وابن أبي عيينة ، وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل وسلماً الخاسر وخلف بن خليفة ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء ، وبشار أطبعهم كلهم"[٢٨] .

وربما تخلى الجاحظ عن مثل هذا الحذر في لحظة أعجاب تتمخض عن قوله : "وأبيات أبي نواس - على أنه مولد شاطر - أشعر من شعر مهلهل في إطراق الناس في مجلس كليب"[٢٩] بوسعنا إذن أن نقرر أن النصف الأول من القرن الثالث الهجري شهد تزحزح الحركة النقدية عن أرضية الرضوخ المطلق لسلطة القديم "وانفتاح أكثر من ثغرة في حصانتها ضد المحدث بدأت تتوسع شيئاً فشيئاً كلما بدأ المحدثون يحفرون طريق نتاجهم ويرسمون ملامح هويته التي لم تقلب موازين القديم أو تنسف تقاليده ، لا نستثني من ذلك دعوة أبي نواس إلى استبدال المقدمة الخمرية بالمقدمة الطللية فهي دعوة إلى تغيير مضمون النمط لا إلى تغيير النمط نفسه : ثم لا نستثني نتاج شعراء مدرسة البديع الذين لم يبتكروا مذهبهم من العدم وإنما استكثروا من فن طالما مارسه القدماء باقتصاد وعفو خاطر[٣٠] بيد أن ذلك كله لا يلغي أن المحدث بدأ ينسلخ عن نمطية القديم بعفوية أعان عليها تطور الزمان واختلاف البيئة وتشعب المرجعيات الثقافية مما تمخض عن نتاج شعري يضرب بأكثر من حذر في تربة القديم ولكنه يستنشق هواء عصره ويعبر عن الصورة الحضارية التي بدأت قسماتها تتبلور وملامحها تتحدد ، ثم تجد طريقها إلى النتاج الفكري والأدبي الذي لم يعد الأعراض عن النظر فيه وتقويمه إلا ضرباً من التعصب الذي رفضه ابن قتيبة حين قال بجرأة نادرة : "فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخير ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً

وكان لابد لابن قتيبة ان يؤسس على هذا الرفض للتعصب للقديم موقفاً يحسب له ، وقد فعل حين أعلن أنه سيطرح عنصر الزمان من عملية التقويم النقدي في اختياراته الشعرية وينظر إلى الشعراء (بعين العدل) قائلاً : "ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسان باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاً حظه ووفرت عليه حقه"(٣٢).

على أن ذلك كله لا ينبغي أن يغرينا بالظن بأن منطق (القاضي العادل) هذا ظل محور جهد ابن قتيبة على الصعيدين النظري والتطبيقي ، فثقافته النقدية التي ورثها من جيل اللغويين وتلامذتهم ظلت متحكمة في نظرية النقدية وذوقه الفني ، فهو حين يتحدث عن أقسام القصيدة القديمة (الطلل والنسيب والرحلة والغرض) ويفسرها تفسيره المشهور يفرض على الشاعر المحدث أن يتابع القدماء عليها فيقول: "فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام" ثم لا يكتفي بهذا بل يشترط على الشاعر المحدث أن يلتزم بالتفاصيل الداخلية لتلك الأقسام فيقول "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجواري لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة"(٣٣) .

ولقد تمخض هذا الموقف النظري عن موقف تطبيقي يؤكد الصورة التي استنبطناها لتوجه ابن قتيبة الذي ظلت سلطة القديم تشكل نسخة الرئيس مع شيء من القبول لمنجزات النص المحدث ، فهو يختار ستة ومائتي شاعر واحد وخمسون منهم جاهليون ، وخمسون مخضرمون ، وسبعون إسلاميون وأمويون وثلاثون من مخضرمي الدولتين والعباسيين فضلاً عن خمسة لا سبيل إلى معرفة

أزمانهم ، وهذه الأعداد تقرر أن التراث شغل الحصة الكبرى إذا وضعنا في الاعتبار أن ابن قتيبة من علماء النصف الثاني من القرن الثالث الذين غدا الشعر الإسلامي والأموي تراثاً بالقياس إلى زمانهم.

ويبدو أن ما قرره ابن قتيبة على الصعيد النظري لم يكن مجرد (تعاطف) مع منجزات المحدث الذي بدأ يكتسب هويته ويفرض نفسه على ساحة النقد التي لم يعد يجدي النقاد فيها ترديد أقوال أسلافهم في التراث القديم الذي لم يعد القول فيه قادراً على الإتيان بجديد ، فكان لابد من تناول هذا المحدث تناولاً تبقى سلطة القديم ماثلة فيه ولكنه يفتح أفقه لتأمل الجديد بحجة التمسك بعدالة الحكم التي قررها ابن قتيبة ثم كاد المبرد يستعير لفظه في ترديد مضمونها حين قال : "ليس لمقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق"[٣٤] بل إن المبرد يكاد يعرب عن (أنحياز) للمحدث حين يصف أشعار المحدثين بأنها (أشكل بالدهر)[٣٥] . ويبدو أن ابن المعتز - تلميذ المبرد - كان أكثر جرأة في التمرد على سلطة القديم ، والتعبير عن الإعجاب بمنجز المحدث ، فهو حين قصر كتابه (طبقات الشعراء المحدثين) على تراجم الشعراء (ممن مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس) أعلن ولادة أول كتاب وصل إلينا يقتصر على شعر المحدثين دون القدماء[٣٦] ، وعلى الرغم من قناعتنا بأن ابن المعتز لم يكن منسلخاً عن سلطة التراث الذي طالما احتج به في حديثه عن إفراط المحدثين في استخدام فن البديع[٣٧] فإنه بدا أقرب من شيخه إلى المحدث وأشد صراحة في التعبير عن إعجابه به فهو يقول : "لكل جديد لذة ، والذي يستعمل في زماننا هذا إنما هو أشعار المحدثين وأخبارهم"[٣٨] ، أما أشعار المتقدمين فهي عنده "شيء قد كثرت رواية الناس له فملّوه"[٣٩] .

والذي يبدو أن إفراد ابن المعتز كتابه للشعراء المحدثين فقط ، فضلاً عن كونه هو شاعراً محدثاً هما العاملان اللذان يقفان وراء هذا (التحرر) من سلطة

القديم والتركيز على براعة المحدث وتطوير وصف شيخه له بأنه (أشكل بالدهر) إلى ما يقترب من مبدأ تفضيله على القديم فيما رويناه من أقواله .

وهكذا نشهد أواخر القرن الثالث الهجري وقوف النقد على مفترق طريق بين الأنشداد إلى القديم والأنفلات من سلطته إلى قبول المحدث والنظر إليه (بعين العدل) أولاً ثم الشروع في تفضيله على القديم حتى بدت مؤلفات القرن الرابع الهجري النقدية أقرب إلى التخصص بالمحدث على الرغم من عودة بعضها إلى القديم في مواقف الموازنة والاحتكام .

لقد أنصب جهد النقاد منذ أوائل القرن الرابع على شعر المحدثين بشكل رئيس، فراحوا يتحدثون عن منجزاتهم بإعجاب لا يقلل من شأنه في نظرهم أن تكون تلك المنجزات مستفادة من إبداعات القدماء ، وذلك ما بدا ابن طباطبا حريصاً على تقريره حين قال : "وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم، ولطغوا في تناول أصولها منهم ولبسوها على من بعدهم وتكثروا بإبداعها فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها وزخرفتهم لمعانيها"(٤٠) .

ويكون للصولي الذي كان معنياً بشعر أبي تمام أن يعمّق مجرى الانتصار للمحدث ، فهو يرى في معاني المحدثين نمطين من الإبداع ، أولهما في أخذهم معاني القدماء وتجديدها ، والآخر في ابتكارهم معاني لم يُسبقوا إليها فهو يقول في الشعراء المحدثين "قلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم إلا أحاد ، وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها ومعاني أو مأوى إليها فأتى بها هؤلاء وأحسنوا فيها ، وشعرهم مع ذلك أشبه بالزمان والناس له أكثر استعمالاً في مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم"(٤١).

ويبدو القاضي الجرجاني الذي توسط بين المتنبي وخصومه أشد تحمساً من الصولي للمحدث ، فهو حين يوافق الصولي على أن أشعار المحدثين أقرب إلى ذوق العصر (٤٢) يذهب الى أبعد من ذلك في الانتصار لهم إذ يرى أن "سبيل هم

ضُيِّق بحاله ، وصنف أكثره ، وقل عدده ، وحظر معظمه ، ومعان قد أخذ عنوها، وسبق إلى جيدها[٤٣]. أما ما قد يؤخذ على أشعار المحدثين فإنه يرى أن أشعار القدماء مما لا نسلم منه[٤٤] .

لقد مهد علماء القرن الرابع لمنجزات المحدثين أن تجد طريقاً لاحباً إلى ساحة الجهد النقدي ، بل إن مؤلفات نقدية برأسها قصرت جهدها على المحدث وحده فكان أبو تمام مدار جهد الصولي ، وكان البحتري وأبو تمام مدار جهد الآمدي ، وكان المتنبي مدار جهد القاضي الجرجاني بيد أن ذلك لا يعني رفض القديم فقد بقي (محمود الشعر) موئل هؤلاء النقاد وسواهم في التحليل والموازنة والاحتكام ، ولعل العلة التي تقف وراء ذلك أن الشعر المحدث نفسه لم يقتلع منجزه من تربة القديم، بل إنه لم يقدم مشروع منجز شعري لا يمت بأكثر من وشيجة إلى القديم لاسيما في نتاج فحول العباسيين ، ولهذا لم يجد النقاد المتحمسون للمحدث إلا هذه التفاصيل الداخلية التي لمحوا فيها جديداً أو تجديداً ظلوا يسجلونه للمحدثين كما رأينا ، ولكن أواخر القرن الرابع الهجري بدأت تشهد تحولاً في النمط الشعري لاسيما في البيئة المشرقية والعراق (مركز الخلافة) ، فقد عاد أكثر النتاج الشعري مقطوعات قصيرة أو نتفاً مشحونة بالزخرف اللفظي ، وكان البراعة الشعرية بدأت تنحصر في قدرة الشاعر على إدهاش المتلقي بما يشحن به مقطوعاته من جناس وطباق ومقابلة وتورية ورد أعجاز على الصدور ... ألخ مما هيأ للبلاغيين مادة خصبة طالما ترددت في باب (البديع) من كتب البلاغة المتأخرة.

وكان طبيعياً أن يركب النقاد موجة هذه (الحداثة) التي زعزعت أركان (عمود الشعر) وكان ابن فارس من أوائل الذين هيأوا الأذهان لتفضيل المحدث على القديم ، أو وضعه على قدم المساواة معه في أقل تقدير فهو يقول "ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال : ما ترك الأول للآخر شيئاً وتدع قول الآخر كم ترك الأول للآخر ؟ وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمان

منها رجال؟ ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك مثل رأيه"[٤٥] .

وهكذا فتح النقد صفحته للمحدث بمواصفاته التي بدت كأنها تكاد تسلخه عن مواصفات القديم ، وكان لابد للناقد الذي يتجرد للقول في المحدث أن يحسم موقفه من القديم لأنه كان يعلم أنه يقف بإزاء نمطين متباينين لم يعد القول بلقائهما على حد وسط ذا قيمة نقدية ، فلا غرابة أن ينطلق أول نص نقدي يفضل المحدث على القديم على لسان الثعابي الذي لم يكتف بتفضيل أشعار معاصريه على من سبقهم بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين قرر أن كل حديث في زمانه أفضل مما هو أقدم منه وعلى مدى المراحل الشعرية السابقة فهو يقول : "كانت أشعار الإسلاميين أرق من أشعار الجاهليين ، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين ، وكانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين ؛ لانتهائها إلى أبعد غايات الحسن ، وبلوغها نهايات الجودة والظرف"[٤٦] .

ولا يكل الثعالبي الأمر إلى الرأي المجرد والهوى الشخصي فهو يقرر أن محاسن أهل العصر بلغت ما بلغته لأنه "جمعت رواء الحداثة ، ولذة الجدة ، وحلاوة قرب العهد ، وأزدياد الجودة على كثرة النقد"[٤٧] فهو يقرر للمحدث إذن براعة اللفظ (رواء الحداثة) وابتكار المعاني (لذة الجدة) ثم يقرر له النضج الفني (أزدياد الجودة على كثرة النقد) وكأنه يرى للنقد مهمة التوجيه والإنضاج فيقرر أن قسطاً من الإبداع لا يعدو أن يكون ثمرة من ثمار هذا التوجيه.

ولقد أرسى الثعالبي بانتصاره المطلق للمحدث مبدأ تابعه عليه لاحقون أولهم تلميذه الباخرزي في كتابه (دمية القصر) الذي تناول فيه تراجم معاصريه أيضاً ثم صار الأمر سنة في الكتب التي تابعت الثعالبي على ترجمة معاصري مؤلفيها كذخيرة ابن بسام وخريدة العماد الأصفهاني.

على أن الساحة النقدية التي لم تعد تشهد انتصاراً مطلقاً للقديم لم تخل من عودة إلى النص التراثي لاسيما في الجهود التنظيرية التي أنبثقت في أواخر العباسي ثم في العصر الوسيط على أيدي بعض النقاد كابن رشيق وابن الأثير وحازم القرطاجني وغيرهم ممن ظلوا يؤولون إلى النص القديم أحياناً بوصفه نص التأسيس، والعمود الذي لا يجدون سواه منطلقاً لتنظيراتهم النقدية التي لم تسلم هي أيضاً من الوقوع تحت سلطة النص النقدي القديم.

والذي يمكن أن نخرج به من هذا الاستقراء الموجز لطبيعة مواقف النقاد العرب بين سلطة القديم ومنجز الحديث هو أن النص التراثي ظل يفرض سلطته على مدى القرنين الأول والثاني الهجريين سواء في الملاحظات التأثرية التي صدرت عن رجال القرن الأول أم في الأحكام النقدية التي أطلقها النقاد اللغويون الذين تطلبوا في الشعر أصالة المنجز اللغوي وابتكار النمط الفني فكان أن أعرضوا عن منجزات المحدث التي رأوا فيها اصطناعاً للغة وأحتذاء على المثال الفني الأصيل مما سوغ لهم أن يعرضوا عن أشعار المحدثين والمعاصرين إعراضاً بلغ حد التعصب في بعض الأحيان.

ويبدو أن عجز الشعراء الإسلاميين والأمويين أنفسهم عن الانفلات من سلطة القديم ، ورغبتهم في أن يكون منتهى إبداعهم مضاهاة النص الموروث كان السبب في موقف النقاد من نتاجهم ، فلما شهدت أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث ظهور عبقريات شعرية كانت لها بصماتها الخاصة في نتاجها الذي ظل يضرب بجذوره في تربة القديم كان للنقد أن يتزحزح قليلاً عن انتصاره المطلق للقديم ويفتح باب النظر (بعين العدل) بين القديم والحديث ، ثم كانت حصة المحدث من الجهد النقدي متناسبة مع مدى ما يقدمه هذا المحدث من منجزه الفني الخاص حتى بدأ النص الشعري ينسلخ أكثر فأكثر عن العمود التراثي ويتحول إلى نص بديعي قصير النفس يكاد لا يمت إلى القديم إلا بشكله العروضي فعند ذاك وجد النقد المنحاز إلى المحدث طريقه إلى الساحة النقدية ، ثم آل الأمر فيما بعد إلى جهد بلاغي صرف ، وإن بقي النص القديم موئل بعض المنظرين من النقاد الذين لم

الهوامش والمصادر:

١ - طبقات فحول الشعراء - ابن سلام - (ت ٢٣١هـ) تحقيق محمود محمد شاكر ، مصر ١٩٧٤م ، ٢٦/١.

٢ - الحيوان - الجاحظ - (ت ٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام هرون ، مصر ١٩٤٥م، ٧٤/١.

٣ - روى ابن سلام حديثاً لم يقطع بارتفاع سنده نصه "أول من تكلم بالعربية وفي لسان أبيه اسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما" طبقات فحول الشعراء ٩/١ . وتنظر رواية أخرى للنص عن أبي عبيدة في البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هرون ، بيروت ١٩٤٨م ٢٩٠/٣ وينظر هامش محقق طبقات فحول الشعراء حول النص.

٤ - ديوان امرئ القيس - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٦٩م، ١١٤.

٥ - طبقات فحول الشعراء - ٥٥/١.

٦ - ينظر البيان والتبيين ٩/٢ والعمدة - ابن رشيق - (ت ٤٥٦) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر ١٩٥٦م ، ١١٤/١.

٧ - العمدة ، ١٩٧/١ .

٨ - المؤتلف والمختلف - الآمدي (ت ٢٧٠هـ) تحقيق عبد الستار احمد فراج، مصر ١٩٦١م ، ٢٤٦.

٩ - فحولة الشعراء - الأصمعي (ت ٢١٣ أو ٢١٦هـ) تحقيق نوري، تقديم صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٧١م ، ٢٠.

١٠ - ديوان عنترة - تحقيق محمد سعيد مولوي - بيروت ١٩٦٤ م ، ١٨٢.

١١ - شرح ديوان كعب بن زهير - طبعة دار الكتب ، مصر ١٩٥٠م، ٦٤.

١٢ - ديوان الفرزدق - تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي ، مصر ١٩٣٦م، ٧٢٠.

١٤ - م.ن ، ١٨ .

١٥ - م.ن ، ١٢ .

١٦ - ينظر مبحث (جهد الأصمعي النقدي في كتابه فحولة الشعراء) ضمن كتابي (دراسات نقدية في الأدب العربي - الموصل ١٩٩٠م ، ٣٢١-٣٦٢.

١٧ - الموشح - المرزباني - (ت ٣٨٤هـ) مصر ١٣٤٣هـ، ٢٤٦.

١٨ - طبقات الشعراء المحدثين - ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مصر ١٩٦٨م ، ١٥٥.

١٩ - م.ن ، ١٢٢.

٢٠ - الشعر والشعراء - ابن قتيبة - (ت ٢٧٦هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر ١٩٦٦ م ، ٦٣.

٢١ - الموشح ، ٥٥ .

٢٢ - ينظر طبقات الشعراء المحدثين ، ١١٤.

٢٣ - ينظر الفهرست - النديم (ت ٣٨٠هـ) تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١م، ٥٩ .

٢٤ - تنظر القائمة التي جمعها الدكتور ناصر حلاوي من المصادر التي نقلت عن أبي عبيدة وتضمنت ثلاث طبقات جاهلية وطبقة واحدة إسلامية وطبقة واحدة عباسية ، وذلك في رسالته بالإنكليزية (أبو عبيدة معمر بن المثنى لغوياً وراوية) - جامعة لندن - ١٩٨.

٢٥ - ينظر م.ن ، ٢٠٠ .

٢٦ - تلك حقيقة رصدها الدكتور بدوي طبانة في كتابه دراسات في نقد الأدب العربي ، مصر ١٩٦٥م ، ٥٦.

٢٧ - نصوص النظرية النقدية - د. جميل سعيد و د. داود سلوم ، النجف ١٩٧١م، ١٦.

٢٨ - البيان والتبيين ، ١/٥٠.

٢٩ - الحيوان ، ٣/٢٩.

٣٠ - ذلك ما قرره ابن المعتز قديماً في مقدمة كتابه (البديع) تحقيق كراتشوفسكي، دمشق (د.ت) .

٣١ - الشعر والشعراء ، ٦٣.

٣٢ - م.ن ، ٦٤.

٣٣ - م.ن ، ٧٥-٧٦ .

٣٤ - الكامل في اللغة والأدب - المبرد - (ت ٢٨٥هـ) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٥٦م ، ٢٩/١ .

٣٥ - م.ن ، ١/٢ .

٣٦ - ذكر القديم كتاباً للمبرد اسمه (الروضة) ، الفهرست ٦٥ ، وهو كتاب مفقود في أشعار المحدثين.

٣٧ - تنظر مقدمة كتاب (البديع) .

٣٨ - طبقات الشعراء المحدثين ، ٨٦.

٣٩ - م.ن ، ٨٦ .

٤٠ - عيار الشعر - ابن طباطبا - (ت ٣٢٢هـ) تحقيق د. طه الحاجري و د. محمد زغلول سلام ، مصر ١٩٥٦م ، ٨.

٤١ - أخبار أبي تمام - الصولي - (ت ٣٣٥هـ) تحقيق خليل محمود وآخرين ، بيروت (د.ت) ، ١٧.

٤٢ - ينظر الوساطة بين المتنبي وخصومه - القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مصر ١٩٦٦م، ٢٩.

٤٣ - م.ن ، ٥١.

٤٤ - ينظر م.ن ، ٤ .

٤٥ - يتيمة الدهر - الثعالبي - (ت ٤٢٩هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر ١٣٧٥هـ ، ٤٠/٣.

٤٦ - م.ن ، ١٦/١-١٧.